٩

فى جوار البيت العتيق

إلى البيت الحرام نتجه فى صلاتنا . .

وفى أرض الحجاز نحس رابطة قوية ، تستطيع أن تختصر الزمان والمكان ، لتعود بنا إلى عهود النبوة والنماذج الإنسانية التى تهوى إليها أفئدتنا .

إلى هذه الأرض سعى سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأسكن من ذريته بواد غير ذى زرع . وفى منى تعرض الشيطان له ولزوجه المؤمنة هاجر ولولده الصابر إسماعيل عليهم جميعاً السلام ، فثبتوا على الإيمان الذى دعاهم إليه ربهم ، ورجموا الشيطان الذى منه حذرهم .

فى هذه الأرض سعى الرسول يعرض نفسه على القبائل فى أيام منى ، فترده ردًّا غير جميل ، ومن ورائه نفر من قومه يصرفون الناس عنه ويرمون الرسول بالجنون .

فى هذه الأرض استجاب الأنصار للرسول ، وشهدت هذه الصخور لقاء المؤمنين وعهد الصادقين ، وكيف فتحت المدينة قلبها للرسول عليه الصلاة والسلام .

هنا فى منى عقد الرسول بيعتى العقبة . وعاهده الأنصار على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . وسمع صوت العباس بن عبادة الأنصارى يقول لقومه شارحاً مسئولية العمل للإسلام : أيا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت

أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه. فمن الآن. فوالله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه[١].

ويدور الزمن دورته ويعود الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكة التى أخرجته. ويدخل المسجد الحرام يحطم ما فيه من أصنام. ويعود البيت إلى ربه طاهراً. ويخطب الرسول فى البيت الحرام كما يخطب بعد هذا فى عرفات وفى منى، داعياً إلى الإيمان بالله مؤكداً كرامة الإنسان والمساواة بين البشر.

تاريخ طويل عاشته هذه الأرض. وعبر كثيرة تستوقف الإنسان من مناسكها وشعائرها وأحداثها. وعند بعض هذه العبر من قصة إبراهيم وأسرته المؤمنة نحاول الوقوف فى هذا الحديث:

ولقد علمنا ربنا فى كتابه فقال: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» [هود: ١٢٠]

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢: ٨٨ – ٨٩ ط. الحلبى، القاهرة.

١ ـ الإيمان

هناك أولا الإيمان العميق الذى يملأ حياتها ويصوغ هذه الحياة ، وتعتز الأسرة به فتتناقله أجيالها ، ويوصى به الأب ولده وهو على فراش الموت :

إبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين : « رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أُمَّةً مسلمةً لك »

ثم يوصى إبراهيم بالإيمان بنيه ويعقوب : « يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ »

ويذكر ربنا أمر يعقوب فيقول : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدى ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَقَ إِلٰهاً واحدًا ، ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » [البقرة : ١٢٨ ـ ١٣٣]

٢ ـ العمل

الإيمان فى حياة هذه الأسرة المباركة لم يكن سلبياً ، وإنما كان إيماناً له تعبيراته العملية وإنجازاته ، وسلوكه الطريق الصعبة متى كان فى هذا مرضاة لله تبارك وتعالى :

- أمنا هاجر حين تسكن الوادى تبحث لولدها عن الماء ساعية بين الصفا والمروة حتى يفيض الماء من جوار الصبي .
- وإبراهيم وإسماعيل يرفعان معاً القواعد من البيت . .
- وإبراهيم من قبل هذا يعيش فى العراق ، ثم يخرج منه مهاجراً إلى ربه . ويسكن أرض الشام . ثم يخرج منها إلى مصر . ويعود إلى الشام . ثم يأمره ربه فيهاجر من الشام إلى مكة ، حيث يرفع قواعد البيت . ثم يعود من بعد هذا إلى الشام .

فعامل الحركة بارز فى حياة الأسرة . وعامل الإنشاء فيها بارز أيضاً .

ومع الحركة والإنشاء لسان يتحرك بالخير قائلا : « ربنا تقبل منا » وقلب خاشع لله يترجم عنه قولهما : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليم » .

وكان من الممكن أن يتفجر الماء من زمزم قبل أن تسعى هاجر ، أو دون أن تسعى . . كما كان من الممكن أن تحيا هاجر وإسماعيل فى جنات الشام ، ولا يسكنان وادياً غير ذى زرع عند البيت المحرم .

ولكن الإيمان لا بد له من تعبير عملى يؤكده ، وهو كما علمنا نبينا عليه الصلاة والسلام : « ما وقر فى القلب وصدّقه العمل» .

لابد إذاً من هذه التجارب والامتحانات يمر بها الفرد والأسرة والأمة لتؤكد حقيقة إيمانها ومدى صلابته وامتناعه على الفتنة .

وهذه التجارب العملية هى المحك الصادق الذى يثبت به الإيمان ، كما أن العمل فى ذاته — وهو تجسيد للإيمان — تشريف وتكريم للفرد الذى يعمل .

ومن هنا تأتى مكانة العمل فى الإسلام وفى تاريخ الإنسانية عامة .

وتبلغ قداسة العمل منزلة نراها فى قصة مريم حين حملت بعيسى

عليه السلام ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة : « قالتْ يَالَيْتَنِى مِتُّ قبلَ هذا وكنت نسياً منسيًّا * فنَادَاهَا منْ تَحْتِهَا : أَلاَّ تَحْزَنِى ، قدْ جَعل رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّى إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عليك رُطَباً جَنِيًّا » .

[مريم : ٢٣ — ٢٥]

فى هذا الموقف يأمرها ربها بأن تهز إليها بجذع النخلة . وماذا تستطيع مريم وهى فى ألم المخاض أن تترك من أثر فى جذع نخلة ؟

ولكن ، حتى فى هذا الموقف ، لا بد من أخذ بالأسباب مهما كانت محدودة ، حتى يصل الإنسان إلى نتيجة . . مع أن الموقف كله كان إعجازاً فى إعجاز .

بل إن الله تعالى يمن على الأنبياء أن وجههم إلى العمل وسبل الإنتاج :

فيذكر عن داود عليه السلام : « وأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » [سبأ : ١٠] ، وقوله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ من بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُون » [الأنبياء : ٨٠] .

وعن سليمان عليه السلام : « ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عاصفةً تجرى بِأَمرِه إلى الأَرضِ الَّتى بَارَكْنَا فِيهَا وكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ » [الأنبياء : ٨١] .

ويعلّم يوسف عليه السلام ، إلى جانب تعبير الرؤيا ، سياسة عملية تنقذ مصر من خطر يتهددها . فيستطيع أن يوازن بين الزراعة والتخزين والتوزيع . . وإذا شئنا اصطلاحاً حديثاً قلنا إن يوسف استطاع أن يخطط سياسة وازن فيها بين الإنتاج والاستهلاك والادخار ، حتى جاء عام فيه من الله غوث ورحمة . .

وحياة موسى مليئة بالحركة بين مصر ومدين وسيناء ، عميقة بتجارب الكفاح ومقاومة انحرافات بنى إسرائيل المتوالية .

وحياة عيسى كانت مليئة بنماذج من المقاومة لقيها من المستغلين فى عصره ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، فلم يجدوا منه إلا الثبات على الحق : « فَلَمَّا أَحَسَّ عيسى منهم الكفرَ ، قَالَ : مَنْ أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريُّون : نحن أنصارُ اللهِ آمَنَّا بالله واشْهَدْ بأَنَّا مسلمون » [آل عمران : ٥٢] .

العمل وقداسة العمل . . الجهد الإيجابى . . هو الدرس الثانى الذى نأخذه من قصة إبراهيم بعد درس الإيمان . . ولم تكن حياة إبراهيم وحدها كذلك ، وإنما هذا نهج حياة الأنبياء جميعاً ، ويجمعهم القرآن فى باقة واحدة من قوله : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون » . [الأنبياء : ٩٢] .

ويوجهنا إلى اتباع ما جاءوا به من الهدى : « أُولئك الذين آتيناهم الكِتَابَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ ، فإنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولئك الَّذِينَ هَدَى اللهُ ،

فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هو إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ » [الأنعام ٨٩ ـ ٩٠] .

٣ ـ تكامل العبادة

وهذا العمل يستغرق جوانب الحياة ، ونماذج القرآن شاهدة على ذلك..

فقد رأينا فى قصة البيت العتيق كيف استغرق رفع قواعد البيت جوانب أربعة من حياة إبراهيم :

(ا) جانب العمل العقلى الذى يحدد به القواعد وأبعادها ويقوم برفعها ؛

(ب) الجهد اليدوى الذى يترجم الفكرة إلى إنشاء وعمل محسوس ،

(ح) القول الخالص لله : ربنا تقبل منا .

(د) القلب المشغول بالله : إنك أنت السميع العليم .

فالعمل هنا عبادة كاملة تشغل التفكير العقلى والجهد اليدوى والقول باللسان واشتغال القلب بطاعة الله ، بحيث يكون الوجود الإنسانى خالصاً لوجه الله تعالى .

والحج ـ كعبادة ـ فيه هذه الجوانب جميعاً : فلابد للحاج من تنظيم سابق ، ينظم به المرء أمر نفسه ، وكفالة أهله من ورائه عند سفره ، وما يلزمهم فى أمر معاشهم ، ومن يحمل مسئولية البيت والعمل عند السفر .

ثم هو فى الحج ، يعبد الله عبادة يتحرك فيها الإنسان طائفاً وساعياً متوجهاً إلى عرفات ، مفيضاً إلى المشعر الحرام ، ثم إلى منى عائداً إلى مكة . . ومع هذه الحركة الدائبة ، يرتفع صوته بالتلبية والتهليل والتحميد والتكبير ، تالياً كتاب ربه ، مصلياً على نبيه ، متجنباً قول الزور

والجدال ، وقلبه — فى هذا كله — يذكر ربه منيباً إليه ، يرجو رحمته ويخشى عذابه . .

بل إننا لو تأملنا سائر العبادات لوجدنا فيها هذه الطبيعة المتكاملة ، فالصلاة — مثلا — عبادة تستغرق القلب واللسان والجوارح والفكر .

وإذا ما كان هناك تكامل بين جوانب العبادات ، فهناك تكامل أيضاً بين العبادات والمعاملات والأخلاق فى الإنسان . وتبلغ آثار هذه العبادات ذروتها ، حين يستطيع المجتمع أن يعبر عنها فى حياته تعبيراً صادقاً ، بحيث تكون هذه الحياة متحركة نحو الأهداف التى رسمها ربنا لنا ، ودعانا إلى المجاهدة الدائمة ، لكى نجعلها حقائق حية ملموسة .

٤ — مفهوم العبادة

وللعبادة فى الإسلام مفهوم يشمل أى عمل يتجه به الإنسان إلى ربه مخلصاً . فالجهد المخلص الذى يبذله الفرد أو المجتمع فى سبيل الخير عبادة .

وفى هذا الضوء نستطيع أن ندرك تلاقى الجهود المخلصة من أجل المصلحة العامة ، واعتبار هذا كله قربة إلى الله تعالى . ولنأخذ لذلك أمثلة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

(ا) من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له (عن ابن عباس) .

(ب) من ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة كفرها (عن عقبة ابن عامر) .

(جـ) من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه (عن أبى هريرة) .

(د) من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع (عن أنس) .

(هـ) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ،

لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ،لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً . (عن أبى هريرة) .

(و) من رابط ليلة فى سبيل الله كانت له كألف ليلة صامها وقامها. (عن عثمان) .

(ز) من رد عادية ماء أو عادية نار فله أجر شهيد . (عن على) .

(ح) من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه . (عن سهل بن حنيف)[١].

فى هذه الأحاديث ترى صوراً متنوعة من الحياة تنتهى إلى هدف واحد هو رضا الله ورحمته . . نرى العامل فى أى مجال من مجالات العمل : زراعة أو صناعة ، وقد أمضى يومه دائباً منتجاً ، فإذا ما فرغ من عمله وأدركه الليل ،غفر الله له بما بذل من جهد. وقد يكون هذا الجهد عائداً على أسرته الصغيرة : زوجه ، وأولاده ، وأمه ، وأبيه . وقد تتسع دائرته لتشمل ذوى رحمه . ولكنه فى إخلاصه سيكسب لنفسه رزقه ، وثوابه من الله ، وسيعود خير ذلك على المجتمع إنتاجاً وإيجابية . . مثل ذلك يقال عن الجندى الذى تعلم كيف يحمى أمته من أى خطر يصيبها — وما أكثر الأخطار التى تتعرض لها أمتنا — فعليه أن يظل محافظاً على مستواه فى القدرة على الدفاع عن وطنه ، فإذا ما هبط هذا المستوى كان ذلك كفراناً بنعمة الله تعالى .

وطلب العلم — عمله كله — ما دام مخلصاً — فهو فى سبيل الله ..

---

(١) السيوطى : الجامع الصغير ، راجع الصفحات من ١٥٨ — ١٨٣ ج ٢ وفيها باقة من أحاديث الرسول تبدأ بكلمة « من » وتعطى صوراً متنوعة من الربط بين الدين والحياة والعمل على خدمة المجتمع .

ثم إذا ما قام إنسان بدعوة خير وبذل فيها الجهد ، كان له ثواب من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، أما من دعا إلى ضلالة فعليه وزر من تبعوه ، دون أن ينقص ذلك من آثامهم شيئاً .

فى هذه المجموعة من الأحاديث التى أوردناها نماذج من ثروة علمية وحضارية ضخمة ، وأمانة أعطانا إياها رسولنا عليه الصلاة والسلام ، يلتقى فيها طلب العلم ، بالجهاد فى سبيل الله ، بالمرابطة على ثغور أوطاننا ، بالتعاون على الإنتاج وبذل الجهد فيه ، ورد شرور الماء والنيران عنه .

فإذا ما أقامت أمتنا من السدود ما تحول به دون طغيان الماء ، وحفظت نفسها من الشر ، وإذا ما عملت فى الاستفادة من ثرواتها ، كان للعاملين فى مشروعاتها أجر الشهداء ، ما ابتغوا بذلك العمل الخير ، وجعلوه لصالح المجموع دون تفرقة أو تمييز .

فى ظل هذا الشمول يمكن أن تلتقى جهود أبناء الأمة جميعاً : تلتقى جهود العمال بالفلاحين بالجنود بالمثقفين ورجال العلم ورجال المال ، دون أن يكون الجهد أو المال وسيلة من وسائل الاستغلال والطغيان . وترتفع منزلة العلم والعمل فتصبح لصاحبها شرفاً ، وتهبط منازل التعطل والتبطل والترف ، الذى ما ذكره ربنا فى كتابه العزيز إلا فى مقام الذم وتحذير الأمة من شروره : « واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وكَانُوا مُجْرِمِينَ * وما كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُها مصلحون » ؟ [هود : ١١٦ – ١١٧] .

٥ ـ الإيمان يجمع ويفرق

وكما أن الإيمان الشامل يجمع بين العاملين من أجله ، مع تعدد مجالات عملهم ، فإنه لا يقبل فى صفوفه إلا المخلصين له ، والسائرين على هديه . . والأمثلة عميقة من قصة إبراهيم عليه السلام :

فطريق الإيمان ـ بطبيعته ـ محفوف بالمكاره ، طريق شاق يحتاج إلى عزمات الرجال ، وصلابة العود ، والصبر الطويل ، والقدرة على الكفاح من أجل الحق ، وامتثال أمر الله فى المنشط والمكره .

إبراهيم عليه السلام ينشأ فيجد القوم من حوله على الكفر ، وتدركه عناية الله وتوجيهه ، ويقص علينا ربنا فى كتابه قصة الاهتداء لتكون لنا نوراً تتحرك به العقول إلى معرفة الله والإيمان به :

« وكذلك نُرِىَ إبراهيمَ مَلكوتَ السّمَواتِ والأَرضِ ، ولِيَكُون مِن المُوقِنِين * فلمَّا جَنَّ عليهِ الليلُ ، رأَى كوكباً ، قال : هَذا رَبِّى . فَلَمّا أَفَلَ ، قَالَ : لَا أُحِبُّ الافِلِينَ * فَلمَّا رأَى القَمَرَ بازِغاً ، قَالَ : هَذا رَبِّى . فَلَمَّا أَفَلَ ، قالَ : لَئِن لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين * فلمَّا رأَى الشَّمسَ بَازِغةً ، قَالَ : هذا ربِّى ، هذا أَكْبَرُ . فلما أَفَلَت ، قال : يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى

فطرَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المشرِكينَ » .
[الأنعام : ٧٥ — ٧٩] .

وهنا تبدأ الخصومة بينه وبين قومه ، خصومة تصل إلى المفاصلة والمفارقة . وإبراهيم ثابت على إيمانه لا يتزحزح ، وقومه جامدون على أوثانهم ، وليس لهم من سنة إلا ما وجدوا عليه آباءهم ، ولو كان الباطل . ويخاطبهم إبراهيم قائلا :

« أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وقَدْ هَدَانِ ؟ ولَا أَخَافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ ربِّى شَيْئاً . وَسِعَ رَبِّى كلَّ شىءٍ عِلْماً . أفلاَ تَتَذَكَّرُون * وكَيْفَ أَخَافُ ما أَشْرَكْتُمْ ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به عَلَيْكُم سُلْطَاناً ؟ فأَىُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالْأَمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * الَّذِينَ آمنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِك لَهُمُ الأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ ».
[الأنعام : ٨٠ — ٨٢] .

وتأتى التجربة العميقة حين يفرق الإيمان بين الأب وولده ، الأب ثائر على ولده الذى آمن بالله وكفر بالأوثان . والابن ثابت على إيمانه وطهارة قلبه ولسانه . الأب يهدد ويتوعد بالرجم والإخراج من البلدة ، والابن لا يملك إلا كلمة السلام على لسانه ، والمغفرة والرحمة فى قلبه . ويسجل الله تعالى هذا حواراً فى آيات كريمة :

«قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ

تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِى مليًّا * قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ، إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا * وأَعْتَزِلُكُمْ وما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وأَدْعُو ربِّى ، عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّى شَقِيًّا » . [مريم : ٤٦ – ٤٨] .

هذا مع أن تقديم إبراهيم دعوة الإيمان إلى أبيه كان نموذجاً فى الدعوة إلى الله : جمع فيها بين الأدلة العقلية وما أوحاه إليه ربه ، وحذر أباه من عصيان أمر الله وإطاعته الشيطان ، وناجاه بالقول الذى يمس القلب . . ولنسمع معاً قول الله تعالى على لسان إبراهيم إذ قال لأبيه :

« يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبدُ مَا لَا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِى عنكَ شَيْئاً *

يَا أَبِت إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا *

يَا أَبتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا *

يا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَن ، فَتَكُونَ للشَّيْطانِ وَلِيًّا » [مريم : ٤٢ – ٤٥]

أربع مرات يخاطبه إبراهيم بقوله .. يا أبت ، بكل ما تحمل من حنان وبر . فى حين يخاطبه أبوه بقوله أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم .. دون أن يقول يا بنى !!

ويهجر إبراهيم أباه بعد أن أنذره الأب بالإخراج والرجم أو العودة إلى الأوثان .

وظل على الوفاء الجميل يذكر أباه مستغفراً حتى ينزل أمر الله :

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ : وَعَدَهَا إِيَّاه . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » . [التوبة : ١١٤] .

فكما جمع الإيمان بين إبراهيم وولده إسماعيل ، فرق الإيمان بين إبراهيم وأبيه آزر . وإذا كان الإيمان بطبيعته يجمع قلوباً وصفوفاً ، فهو بطبيعته أيضاً يميز بين العاملين للخير والعاملين للشر .

ونستطيع أن نتصور الألم الكبير الذى حمله إبراهيم بين جنبيه ، وهو يخرج من موطنه فى العراق ، مهاجراً إلى الشام ، وقد ترك وراءه أباً لم يستطع إبراهيم هدايته وأمر الله بين يديه واضح .. ألا يستغفر لذلك الأب لأنه عدو لله .. فكأن الإيمان الذى يحمله إبراهيم إلى قلوب الناس ، لا يستطيع أن يحمله إلى أقرب الناس إليه .. إلى أبيه : « إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ . وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ . وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . [القصص : ٥٦] .

ألا نجد فى هذا عزاء حين نرى بعض من نرجو لهم الخير ، يتبعون

غير سبيل المؤمنين ؟ ولكن أمر الله أولى بالاتباع . . وإذا كنا نتصور في موقف آزر . أن مكانته كأب حجبت عنه — استكباراً — الاستماع إلى الحق من ولده ، فإن القرآن أعطانا النموذج المقابل حين رفض ابن نوح أن يسمع إلى صوت الإيمان من أبيه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وكما يفرق الإيمان بين الأب وولده ، فإنه يفرق أحياناً بين المرء وزوجه : والنموذجان موجودان في القرآن :

امرأة مؤمنة مع زوج كافر في قصة فرعون وموسى . ورجل مؤمن مع زوجة غير مؤمنة في قصتي نوح ولوط .

لا يمكن إذن أن نتصور صف المؤمنين مجتمعاً إلا على أساس من الإيمان الواضح السليم . الإيمان الذي يعبر عن نفسه تعبيراً شاملا في أمر الحياة جميعاً ، دون أن يكتفي منها بكلمات يرددها اللسان ، وليس لها رصيد من العمل والجهد الدائب ، الذي يعود خيره على الفرد والمجتمع .

٦ ــ الفداء

وتأتي قصة الفداء بروعتها حينما جمع الإيمان بين إبراهيم وإسماعيل وهاجر .

وأسكن إبراهيم من ذريته بواد غير ذي زرع :

«وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟

قال : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فلمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للجَبِينِ * ونَادَيْنَاهُ : أَنْ يا إبراهَيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كذلِكَ نَجْزِى المحْسِنينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلَاءُ المبين * وفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وتَرَكْنَا عليه فى الآخِرِينَ * سلامٌ عَلَى إبراهيمَ * كذلك نَجْزِى المحْسِنِين * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُؤْمِنِينَ * وبَشَّرْناهُ بإِسْحاقَ نَبِيًّا من الصَّالِحِينَ * وبَارَكْنا عليهِ وعلى إِسْحاقَ ، ومنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالِمٌ لِنفْسِهِ مُبِينٌ » [الصافات : ٩٩ ـ ١١٣]

وفى هذه الآيات أكثر من وقفة :

١ ـ فإسماعيل جاء أولا ثمرة دعوة طاهرة من قلب إبراهيم ، عندما ناجى ربه : رب هب لى من الصالحين .

٢ ـ ثم إن إسماعيل فى قصة الفداء كان قد بلغ السعى . . أى أنه لم يكن طفلا صغيراً لا يقدر مسئولية العمل . يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « فلما بلغ معه السعى ، أى كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : شب وارتحل وأطاق ما كان يفعله أبوه من السعى والعمل »(١). فلم تكن التضحية إذن بغلام لا يتحمل مسئولية أو دون سن التكليف ، وإنما لشاب يستطيع

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ : ١٤ .

أن يتحمل المسئولية الكاملة لما يتخذه من قرار يتعلق بشأنه . . وإن كان متعلقاً بالموت والحياة امتثالا لأمر الله .

٣ ــ الحوار إذاً بين إبراهيم وإسماعيل كان بين أب وولده لكل منهما مسئوليته الخاصة التى سيسأله الله عنها . إسماعيل يؤمن بنبوة أبيه . ويحبه فى نفس الوقت . وإبراهيم كان منه التخيير لولده لا الأمر « فانظر ماذا ترى » وكان إسماعيل ــ لو أراد ــ يملك الرفض . فهو بهذا لم يكن مغلوباً على أمره أمام أبيه ، وإنما تحققت فيه غاية التسليم لله تعالى فى هذا الموقف . ومما يؤكد أن المحنة كانت للأب والابن ، وأن وطأتها كانت مشتركة بينهما ، قول الله تعالى فى وصف الموقف : «فلما أسلما وتله للجبين » : أسلم الأب امتثالا لأمر الله ، وأسلم الولد طواعية ممتثلا لأمر الله . الأب يجد الأمر الإلهى بذبح وحيده إسماعيل ، بعد أن جاءه على شوق للولد ، وأمنيته أن يخرج من ذريته أمة مسلمة لله . والابن يسمع الأمر الإلهى لأبيه فيصدق أمر الوحى ، ولو كان القتل على يد أحب الناس إليه . . أبيه وأبى المسلمين جميعاً .

من هنا نستطيع أن ندرك العمق العميق فى قول الله تعالى : « إن هذا لهو البلاء المبين » ولننظر فى أدوات التأكيد المتعددة فى الآية . . « إن » و « اللام » فى « لهو » ، ثم « المبين » وصفاً للبلاء .

ونرى فى الآيات صوراً نابضة بالحياة للأوصاف التى وصف الله بها خليله إبراهيم : من الإسلام والصبر والتصديق والإحسان والإيمان ، وكيف انتهى هذا كله بسلام عليه وعلى آله إلى يوم القيامة ، يتلوه كل مسلم فى صلاته فى اليوم مرات ومرات .

٤ ــ وإذا كان إبراهيم قد اختبره الله فى ولده ، فقد اختبره فى نفسه من قبل : حين وقف وحيداً أمام قومه وحطم أصنامهم وأقبل قومه قائلين : « ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ » [الصافات ٩٧ ـ ٩٨] .
وجعل الله النار عليه برداً وسلاماً .

٧ ـ الرمى

وإذا كان من مناسكنا فى الحج رمى الجمرات ، فنحن نذكر المواطن الثلاثة التى تعرض فيها الشيطان لأفراد الأسرة المؤمنة :

١ ـ تعرض مرة لإبراهيم يحاول أن يصرفه عن تنفيذ أمر الله .

٢ ـ وتعرض ثانية لإسماعيل يحببه فى الحياة ، ويصرفه عن طاعة أبيه .

٣ ـ وتعرض ثالثة لأمنا هاجر يهول لها المصاب ـ وهو جلل ـ لتحول دون تنفيذ أمر الله .

وكانت الإجابة واحدة : حصيات ، يرمون بها الشيطان . وتشترك الأسرة المؤمنة فى موقف الإيمان الواحد ، وتضرب عدواً واحداً يستوى فى هذا الرجل والشاب والمرأة .

الرمى بهذا هو التعبير عن الصف المؤمن : صف الرجال والشباب والنساء حين يجمعهم الإيمان ، فيتحركون بأمره مهاجمين عدوهم المشترك . . لقد تجلى فى إسرة إبراهيم المؤمنة وحدة صفها ، ووحدة هدفها ، ووحدة عملها ، فى هذا المشهد المبين ؛ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

٨ ـ الطواف والسعى

وإذا كانت حكمة الرمى تعبيراً عن كراهية الشر والشيطان ، فإن حكمة الطواف تعبير عن الخير والحب ، حين تتحرك الجموع تدور حول بيت ربها ، تستلم الركن أو تشير إليه مكبرة داعية . وإذا كان فى ركن البيت حجر يقبله الحاج ،أو يشير إليه فى حب وإكبار ، ففى منى ثلاثة أحجار يرجمها الحاج .

والإيمان أن تحب لله ، وأن تبغض لله .

ونرى هذه الحركة المنتظمة أيضاً فى السعى بين الصفا والمروة . ونذكر فى هذا السعى أمنا هاجر باحثة عن الماء لصغيرها حتى نبع الماء عند قدميه .

فإذا كان السعى يمثل الحركة المؤمنة المنطلقة إلى هدف .

فإن الطواف يمثل الحركة المؤمنة المعبرة عن الحب .

ورمى الجمرات هو الحركة المؤمنة المعبرة عن كراهية الشر .

وهذا كله فى مساواة يلتقى فيها أبناء الإسلام جميعاً ، وقد خرجوا من ثياب الزينة التى يتفاخرون بها ، ويتميز بها بعضهم عن بعض ، وهرعوا إلى ربهم حاسرى الرءوس ، لا يدفعهم إلى بيت ربهم إلا الإسلام له ، والاستجابة لدعوته .

٩ ــ المدن الثلاث

ويلخص لنا ربنا في الحج قصة الحياة كلها في هذه المدن أو المواضع التي نعمرها بعض الوقت ثم نمضي :

١ ــ فإذا كان يوم التروية ــ السابق ليوم عرفة ــ أخذت جموع الحجيج تدفع من مكة إلى منى ، ومنها إلى عرفات ، وترى حولك مدينة كاملة قائمة بخيامها وأسواقها وإدارتها وهدفها . . وتظل المدينة عامرة حتى إذا غربت الشمس دفع الحجيج منها إلى المشعر الحرام . . ويستطيع الحاج أن يصل إلى عرفة في أي وقت قبل غروب الشمس . ولكن عليه أن يبقى حتى الغروب ، ومن بعده الإفاضة . فهنا ــ في عرفات ــ مدينة نعمرها نهاراً .

٢ ــ وفي المشعر الحرام ــ المزدلفة ــ نرى مدينة أخرى نعمرها ليلا ، لم تكن قائمة يوم عرفة ، ولن تبقى في يوم النحر . ونرى الآلاف المؤلفة وقد سكنت جوانب الطريق تصلي المغرب والعشاء ، وتجمع حصيات الرمي ، وتدعو ربها ، ثم تتهيأ بعد هذا للإفاضة إلى منى . . فهنا ــ في المزدلفة ــ مدينة نعمرها ليلا .

٣ ــ إذا جئنا منى ، صبيحة يوم النحر ، وجدنا مدينة نعمرها أياماً . . ليلا ونهاراً ، نؤدي فيها مناسك النحر والحلق والرمي . وندع ثياب الإحرام إلى ثياب الحل . فهنا ــ في منى ــ مدينة نعمرها ليلا ونهاراً . . أياماً معدودات .

فإذا ما أمرنا ربنا بأن نعمر مكاناً ليلا عمرناه ، أو نهاراً عمرناه ،

وإذا ما أمرنا أن نقيم فيه الليل والنهار أياماً ، امتثلنا أمر ربنا فى الإقامة والارتحال .

مدن تقوم وتنتهى ، تذكرنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام : « الدنيا سوق قامت ثم انفضت ، ربح فيها من ربح وخسر فيها من خسر » .

وفى حركتنا بين هذه المواطن نحس أعمق الإحساس أن القائد الأكبر فى الحركة كلها هو الإيمان .

ذلك لأن هذه الآلاف المؤلفة ، التى تتحرك فى اتجاه واحد نحو عرفات ، ثم منها إلى المشعر الحرام ، ثم إلى منى ؛ لا يجمعها أمر واحد إلا الإيمان . هم من شعوب تختلف ألسنتهم وقدراتهم . ومراحل سن متعددة من الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة . فيهم الرجال والنساء . وسائل مواصلاتهم متعددة . بطيئة وسريعة . من الذى يسعى على قدميه ، إلى راكب الدابة ، إلى راكب السيارة .. آلاف وراء آلاف يدفعهم الإيمان إلى الحركة ، ويأمرهم بالتوقف . يأمرهم بالحركة ليلا أو نهاراً ، فيجد منهم جميعاً الامتثال والطاعة .

نموذج يرينا ماذا يصنع الإيمان فى النفوس ، وكيف يستطيع أن يربط بينها برباط من التقوى — وهى خير زاد — ويحركها نحو أهدافها فى وحدة ، وعرض هائل يتكرر كل عام عبر القرون . . .

وبعد : فهذه بعض عبر الحج وقصة إبراهيم عليه السلام ، أوحتها إلى النفس أيام قضيتها فى جوار البيت العتيق .